هروب

كانت الشمس تجمع آخر خيوط أشعتها الذهبية عندما كان سعيد يصعد الدرج على أطراف أنامل قدميه فى حرص وحذر، وكأنه يحرص على عدم إيقاظ نائم يستعصى عليه النوم، وكان ممسكا فردتى حذائه فى يده اليمنى بقوة، وحقيبة أوراقه بيده اليسرى.

ومالبث أن تضرع إلى الله فى سره لكى يوقر أذنى مالك العمارة حتى لايسمع وقع خطواته على الدرج الرخامى الأبيض الذى لمع كالبللور، وتفاقم حذر سعيد عندما بلغ الطابق الثالث، ونظر إلى باب شقة مالك العمارة فى رهبة وانزعاج، كمن يتوقع أن يخرج منه أحد الكائنات الأسطورية المفترسة، وينقض عليه فجأة.

فتح باب الشقة فجأة، وخرج مالك العمارة إلى الدهليز، وألقى على سعيد نظرة خاطفة جعلت سعيد ينكمش ويطرق برأسه فى خزى وخجل أثناء سيره، وقال بلهجة يقترن بها شئ من التعريض والاستهجان:

- ولداك أشجع منك ياسعيد... إنهما لم يفعلا ما فعلت.

تسمر سعيد فى مكانه، وانتابه المزيد من الشعور بالخزى والخجل والضيق. وقال:

- إننى أعلم ذلك ياحاج مصطفى.. أرجو أن تقبل عذرى، إننى لم أتقاض راتبى.

تساءل مصطفى فى ضيق:

- إلام تستمر هذه الضائقة المالية التى نزلت بالشركة؟

أجاب سعيد:

- سمعت أن الأزمة سوف تنفرج بعد بضعة أيام.

ارتسمت على شفتى مصطفى ابتسامة سخرية، وبلهجة أكثر جدية.قال:

- اسمع ياباشمهندس سعيد.. ادفع الإيجار أو اترك الشقة.

كادت الدموع تنهمر من عينى سعيد، لكنه بذل جهدا كبيرا ليمنعها، فترقرقت فى عينيه دموع بدت كأنها لؤلؤتان شفافتان تغطيان عينيه وتشف عنهما وتكشفهما. وقال فى توسل:

- أرجوك ياحاج مصطفى.. أرجو ألا تغضب منى.. أنت تعلم جيدا أنك فى مقام أبى رحمة الله عليه، إننى

اعمل مهندسا بهذه الشركة منذ أكثر من عشرة أعوام.. ولم يحدث أن تأخرت عن دفع رواتبنا يوما واحدا. وكنت أدفع لك الإيجار بمجرد عودتى من الشركة.. لن يحدث شيئا إذا تحمل...

قاطعه مصطفى قائلا:

- كنت....

اجتهد سعيد لكى يسيطر على مشاعره. ثم تساءل:

- أين أذهب بزوجتى وأبنائى الثلاثة إذا طردتنى من الشقة؟

مست كلمات سعيد قلب مصطفى، وبددت قسطا كبيرا من ضيقه وغضبه. وقال:

- أنا غاضب منك ياسعيد.. أخاف أن...

- لاتخف.

وكاد يرتمى على قدمى مصطفى ويقبلهما، غير أنه تمالك زمام نفسه، واكتفى بأن يقول فى استعطاف:

- سأفعل ماتعودت أن أفعل طوال الأعوام السابقة.. لاتغضب منى..أرجو أن تسامحنى.. إننى سوف أقبل رأسك حتى لاتكون غاضبا.

ومال سعيد على مصطفى يريد أن يقبل رأسه، فلمس الحذاء وجه مصطفى، فحاول ان يتملص من سعيد فى اشمئزاز وغضب أشد، وصاح بضيق:

- ابتعد عنى ياسعيد. ابعد هذا الحذاء.

ومسح وجهه براحة يده اليمنى، عندئذ، فطن سعيد إلى أن الحذاء مازال فى يده اليمنى، فتراجع إلى الخلف خطوة، ولبس الحذاء وقد ازدادت همومه، وسار فى الدهليز بتثاقل إلى الدرج ليصعد، وتابعه مصطفى بناظريه فى دهشة وحيرة، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هزء وسخرية.

صعد سعيد فى الدرج، وهو يفكر فى ضيق، فتساءل فى نفسه: " ماذا أفعل لأتجنب لقاء هذا الرجل إلى أن تحل الأزمة؟".

وصل سعيد إلى باب شقته، وضغط زر الجرس برفق، ووقف برهة ينتظر، وما أن فتحت زوجته عزيزة الباب، ودلف منه، وسار بضعة خطوات فى الردهة، حتى أتى إليه ولداه أحمد ومحمود، وقد بسط كل منهما ذراعيه، يريد أن يحتضنه، ويقول فى سرور وغبطة:

- جاء أبى.

غمرت السعادة صدر سعيد، فنسى كل ما ينوء به قلبه من مشاعر الحزن والضيق، وكاد قلبه يرقص سرورا وطربا، واحتضن ولديه، وطبع قبلة حانية على جبين كل منهما، وتناول من حقيبته قطعتين من الشيكولاته، أعطى واحدة منهما لكل من ولديه، فشغل بها عنه.

رنا سعيد إلى عزيزة فى حنان، والتقط نفسا عميقا. وصاح:

- رائحة كرنب. مؤكد أننا سنتغدى به.

ارتسمت ابتسامة حانية على شفتى عزيزة. وقالت:

- طبعا. لقد طلبته منى أمس.

قال سعيد فى حنان وتأثر:

- هذا ما توقعته. أطال الله فى عمرك.

نظر محمود إلى أبيه وتساءل:

- أبى متى تشترى لى الدراجة التى وعدتنى بأن تشتريها؟

انتاب سعيد الشعور بأن الهموم قد عاودته بقوة أشد. فأجاب فى سهوم:

- التساهيل على الله.

صاح محمود باحتجاج:

- إننى كلما طلبت منك شيئا تقول التساهيل على الله. قل لى متى تأتى هذه التساهيل؟

أطرق سعيد برأسه، ولم يرد، ولاح الغضب على وجه عزيزة فصاحت:

- عيب ياولد... لاتكلم أباك بهذه الطريقة. دعه يستريح من عناء العمل.

ازداد غضب محمود. وقال:

- هذه مصيبة أخرى.

سار سعيد ذاهبا إلى حجرته فى تثاقل شديد، وكأنه يحمل على ظهره أطنانا من الحديد تثقل ظهره وتعوقه عن السير.

•••

عندما ارتفع رنين جرس المنبه فى الهاتف المحمول أسفل وسادة سعيد معلنا تمام الخامسة صباحا، استيقظ سعيد من نومه، وضغط على زر الهاتف، فتوقف الجرس عن الرنين.

جلس سعيد على حافة الفراش، ووضع قدميه فى الخف القابع على الأرض على مقربة من الفراش، وسار مغادرا الحجرة إلى دورة المياه، ولم يكن أحد أفراد أسرته قد استيقظ، فحرص على ألا يصدر صوتا.

وكانت الشمس ترسل أول خيوط أشعتها إلى الكون ليبدأ ظهور نهار يوم جديد، عندما خرج سعيد من باب الشقة، وأغلق الباب خلفه برفق، وهبط الدرج وهو فى أشد الحرص على ألا يصدر صوتا أثناء هبوطه.

وصل سعيد إلى فناء العمارة، فانتابه الشعور بالسرور والزهو لأنه استطاع أن يفر من مالك العمارة ومن مطالبته له بدفع الإيجار، لذا، سار منتفشا كالطاووس وهو يخرج من باب العمارة. ويسير فى ناحية من الشارع

متجها صوب محطة المترو.

فجأة لمح سعيد مالك العمارة قادما، فظل سائرا على الجانب الآخر من الشارع، وجاهد لكى يتوارى عنه، ولم يستطع.

إذ فوجئ بعد لحظات بمصطفى يقف قبالته، ويجعله يتوقف عن السير، وفى نبرات صوت اقترنت بالسخرية والتهكم. قال:

- إلى أين ياباشمهندس؟

انتاب سعيد الشعور بالارتباك، ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة. فاستطرد مصطفى قائلا:

- الذهاب إلى الشركة بعد صلاة الفجر لن يعفيك من دفع الإيجار.

وأطلق ضحكة عالية، أودعها كل ما فى نفسه من سخرية واستهانة، وسار متجها إلى باب العمارة، تاركا سعيد فى حالة من الضيق والإحباط الشديدين.